هل نحن أمام معرفة حقيقية بالمستقبل؟

بحسابات المنطق، هناك فرق بين التوقع المبني على العلم والبيانات، وبين الادعاء الذي لا يستند إلى دليل. فعالم الأرصاد مثلا يستطيع توقع العواصف، وخبير الاقتصاد يستطيع قراءة احتمالات الركود، وهما بذلك يقدمان تقديرات قابلة للصواب والخطأ، وليس حقائق مطلقة. فحين تقول النشرة إن احتمال هطول المطر سبعون في المئة، فهي لا تجزم بأن المطر سيهطل في كل مكان، بل تعرض تقديرا مبنيا على معطيات قابلة للتغير. وكذلك حين يحذّر اقتصادي من احتمال الركود، فهو يقرأ مؤشرات مثل تراجع الإنتاج أو ارتفاع البطالة، ولا يملك ضمانا بأن النتيجة ستقع حتما.

لكننا اليوم وما بين توقع وآخر، نجد أنفسنا أمام جرعات متزايدة من القلق، حتى أصبح بعضنا يعيش أحداثا لم تقع، ويخشى أزمات ربما لا تأتي أصلاً.

لم يعد المستقبل مجهولا تماما في عالم الميديا، فهناك من يخبرنا كل يوم بما سيحدث غدا، ويتنبأ بحروب وأزمات وكوارث وتحولات كبرى، بل وبعضهم يحدد مواعيد وقوعها بثقة لافتة، وكأنه يقرأ صفحات من كتاب لم نصل إليه بعد.

ما جعلنا نتساءل هل نحن أمام معرفة حقيقية بالمستقبل، أم أمام صناعة إعلامية تستثمر في فضول الإنسان وخوفه من المجهول؟ من الناحية الدينية، الأمر يحتاج إلى وضوح لا إلى مزايدة. يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (سورة النمل – 65). ويقول سبحانه: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (سورة الأنعام – 59).

ولا يتعارض ذلك طبعا مع التخطيط واستشراف المستقبل ودراسة الاحتمالات، لكن ثمة فرقاً واضحاً بين قراءة المؤشرات وادعاء معرفة الغيب. فالمؤمن يأخذ بالأسباب، ويستعد لما قد يأتي، ولا يسلم عقله لكل من يدعي امتلاك معرفة استثنائية.

ومع التقدم التكنولوجي وأبحاث الذكاء الاصطناعي، أصبحت الأنظمة قادرة على تحليل مليارات البيانات، واكتشاف أنماط واستشراف اتجاهات اقتصادية ومناخية وصحية وغيرها. لكنها، مهما بلغت قدراتها، لا

تعرف الغيب، هي فقط تحسب الاحتمالات وفق المعلومات المتاحة، وقد تخطئ إذا تغيرت الظروف أو نقصت البيانات، فالثقة بالمؤشرات الكمّية من دون وعي بها يؤديان إلى الخوف الذي يعتبر وسيلة وأداة مهمة للسيطرة والتسلط. وإذا كانت أكثر التقنيات تطوراً تعترف بحدود توقعاتها، فلماذا نمنح بعض المتنبئين (المُنجمين) ثقة مطلقة؟

أما الحديث عن نسب صدق هؤلاء، فلا يمكن حسمه بالانطباعات أو بالمقاطع التي انتشرت بعد تحقق بعض التوقعات. المعيار هو مراجعة سجلهم كاملا: ما الذي تحقق، وما الذي لم يحدث، وكم كان التوقع محدداً أصلاً؟

فغالبا ما نتذكر إصابة واحدة وننسى عشرات الإخفاقات.

وليس بالضرورة أن يكون كل من يتحدث عن المستقبل مخادعا، لكن من حقنا التساؤل عن مصادره ودوافعه، فبعض المحتوى لا يبحث عن الحقيقة بقدر ما يبحث عن المشاهدة والانتشار والشهرة، والخوف مادة خصبة لذلك.

ونفسيا، يميل الإنسان إلى تصديق ما يوافق مخاوفه، ويبحث عمن يمنحه إجابة عن المجهول. وقد يتحول هذا القلق اجتماعيا إلى خوف جماعي يؤثر في قرارات الأسر والناس، وقد يصنع أحيانا أزمة حقيقية نتيجة الهلع من أزمة متوقعة. فلو انتشرت شائعة غير موثقة عن نقص سلعة أو تعطل خدمة، فقد يندفع الناس إلى الشراء والتخزين قبل التحقق منها، فينشأ نقص فعلي أو اضطراب كان يمكن تفاديه. هنا لا يكون الخوف مجرد شعور، بل قد يتحول إلى تصرف جماعي يصنع جزءا من الأزمة التي يخشاها الناس.

وربما تكمن المفارقة فلسفيا في أننا ننشغل كثيرا بمحاولة معرفة الغد، ونهمل مسؤوليتنا تجاه اليوم. ربما لا يعرف أحد منا ماذا يحمل الغد، وقد تأتي أيام بما لم نحسب له حسابا، لكن هل يستحق الأمر أن نقضي أيامنا خائفين من أحداث لم تقع بعد؟ أن نؤجل فرحتنا، ونقلق على أبنائنا، ونفقد طمأنينتنا كلما ظهر شخص ليخبرنا أن القادم أسوأ؟ فمن المفيد مثلا تدوين التوقعات قبل وقوع الأحداث، مع تاريخها وصياغتها كاملة، ثم مراجعتها لاحقا، فذلك يمنعنا من تذكّر الإصابة وحدها ونسيان التوقعات التي لم تتحقق، أو إعادة تفسير الكلام العام بعد وقوع الحدث.

فالغد حتما سيأتي في موعده، ولن نربح شيئا إذا وصلنا إليه وقد استهلكنا أعمارنا خوفا منه. التوقع المبني على مؤشرات يظل احتمالا قابلا للاختبار، وأما الجزم بالمستقبل بلا دليل واضح فلا يصبح معرفة

لمجرد أن بعض الكلام وافق حدثا لاحقا.

الحياة أقصر من أن نعيش نصفها في انتظار المصائب، وأجمل من أن نسلّم أيامنا للخوف. فلنأخذ بالأسباب، ولنستعد لما نستطيع الاستعداد له، ولنترك ما لا نعلمه ﷲ. أما أولئك الذين يحدثوننا عن الغد، فيمكننا أن نستمع لهم، لكن ليس من الحكمة أن نمنحهم مفاتيح طمأنينتنا.